

الأميري والزبيري: أخوة الآلام والآمال

باسل الرفاعي

في حياة الشاعر الراحل عمر بهاء الدين الأميري محطات وعلاقات بالغة الأهمية، تمتد على امتداد عمره الذي أمضاه متنقلاً بين المشارق والمغرب مغترباً عن وطنه، ممعناً في التماهي بقضايا أمته ودينه؛ ولقد كان من أبرز باكستان " أول مرة " الذين التقاهم الأميري في مقتبل حياته، وهو يزور دولة أواخر الأربعينيات، الشاعر والسياسي والزعيم اليمني محمد محمود الزبيري، الذي كان قد غادر بلده إثر فشل الثورة على حكم الأئمة، وسقوط حكم الدستوريين، ولم يجد سوى الباكستان مكاناً يتوارى فيه، فحضر إليها سنة ، وكان لقاء الأميري به أول مرة على هامش الاجتماع الأول لمؤتمر ١٩٤٨ م ، وكان الزبيري وقتذاك للعالم الإسلامي الذي انعقد في كراتشي عام ١٩٤٩ م ، يعيش حياة قاسية، ويسكن - كما روى الأميري - "عشة دجاج على سطح بيت تاجر بحريني في كراتشي، ويفتات بفضلات الخبز التي تفيض من الفنادق وتباع طعاماً للطيور والحيوانات!" ولقد جهد الأميري فور أن تعرّف عليه فأقنع إدارة المؤتمر باعتماد الزبيري ممثلاً لليمن فيه، وشاركه الغرفة التي خصصت له، وتوثقت العلاقة بينهما، فلما عاد إليها سفيراً ازدادت الصلة، ؛ يقول الأميري: "عرفته في باكستان (٢) وتوثقت وأصرر المحبة بينهما وعرفت منه ما لم أجده قط عند سواه، من طهر وعفة وأبوة وبساطة عيش ؛ ويضيف " (٣) ..ورضا نفس بالكفاف، وبذل سخي في مجالات الخير والجهاد في حديث آخر: "لما التقينا كانت الدقائق الأولى كافية لأن تمحو معنى الزمن بيننا، وأن توطد أخوتنا في الله من الأعماق التي بدأ فيها تلاقينا الفكري وكان الودّ والانسجام والتلاؤم في كثير من الأذواق ..والإيماني والجهادي والأشواق والآفاق يتأكد ويتوطد بيننا تلقائياً خلال ذلك دون أن نشعر.. وكأننا نشأنا معاً منذ نعومة الأظفار، أو كأنّ عمر هذه الصلة بيننا عمر الآلام والآمال في حياة أمتنا وعقيدتنا ورسالتنا.. فكانت أيام وجودي في باكستان لحضور الدورة الأولى لمؤتمر العالم الإسلامي بداية انطلاق الحياة بيننا، والتي أؤكد بعقلي وقلبي أنها ما تزال موصولة رغم أنه استشهد وانتقل إلى الرفيق الأعلى " (٤) ..منذ ١٩ عاماً، ولكنه حيّ في حقيقته، وفي إشعاعاته في نفسي

ولقد أثمرت هذه الأخوة محبة حقيقية ووداداً خالصاً، وعندما عاد الأميري إلى باكستان سفيراً مفوضاً في السنة التالية، حياه الزبيري بقصيدة من سبعة أبيات مطلعها

لم تُبقَ منه ولم تذرْ "رفقاً بقلبك يا "عمرُ
..حَمَلْتُهُ عَبَاءَ البَشْرِ وحِكمَتُهُ حُكْمَ القَدْرِ
...رفقاً به طال المسيرُ عليه، واتصلَ السفرُ
:فأجابه الأميري بقصيدة من مئة وخمس عشرة بيتاً جاء فيها
وإني كتابُكَ بالغَرَرِ من فيضِ وُدِّكَ والدُّرِّ
قد فصلتْ آياته بالحبِّ وازدهتِ السُّورُ
وذكرتْ قلبي والأسى لم يُبقِ منه ولم يذرْ ..
ودعوتني للرفق في أمرِ تضيقُ به القَدْرُ
!(٥) ... ما حيلتي يا صاحبي وقلوبُ مَنْ حولي حَجَرُ

ومما روي من حكايات العلاقة بين الأميري والزبيري أنهما كانا يوماً في حمام من حمامات باكستان العامة، وكان الأميري يعرف تحامل الزبيري على نفسه وترفعه عن قبول أي مساعدة مالية، فرأى الفرصة مواتية عندما وقعت عيناه على محفظته على غفلة منه، ففتحها ودسَّ له فيها مبلغاً من المال، ولم يقف الزبيري على ما حدث إلا بعد افتراقهما خارج الحمام، وأدرك عندها مدى تلطف الأميري واهتمامه الفائق به (٦) ومراعاته الكريمة لمشاعره.

ولقد بلغ صفاء العلاقة بين الأميري والزبيري حدّاً جعل الأميري يقول عنه بعد وفاته بقرابة العشرين سنة: "أحبّ في الله مخلصاً صادقاً الشهيد الزبيري، حبّاً تمازجت فيه ؛" (٧) أرواحنا، وتلاقت أذواقنا، وتلاحمت آمالنا بمستوى قلماً ترقى إليه أخوة النسب وهو حبّ خالص بادلته الزبيري بمثله، وعاشه بعمقه؛ ولقد وقعتُ على صورة للزبيري: أهداها إليه، وكتب عليها بخطّ يده المنمّق الأبيات التالية

أيها الأحبابُ ما زلتَ لكمُثلَ ما كنتُ وفيّاً مُشفقاً
إنني إذ أكتبُ الحرفَ لكمُحسداً الخطّ به والورقا
وعلى رسمي قلبٌ نابضٌ حرّكوه فعسى أن يخفقا
ولديكم صورتي شاهدة فاسئلوها علّها أن تنطقا
إبرّدوا لوعتها في جوكم وخذوها قبل أن تحترقا
وتحت الأبيات كتب الزبيري: "إلى أخي عمر حفظه الله وحياه.. ذكرى قلب ورمز إخاء
!"دائم

وعندما استقرّ الزبيري في القاهرة بعد سنوات، وكان له في إذاعتها برنامج أدبي، قدّم شعر الأميري وخماسياته في حلقات استهلّها بالحديث عن الصلة الوثيقة التي تربطه! (٨) بروح الشاعر وقلبه، حتى كأنه "يقدم الجزء الأعلى والأسمى من أجزاء نفسه وفي رسالة خطّها الزبيري من القاهرة عام ١٩٤٩ م. يحدثه فيها عن المعاناة التي يعيشها داخل نفسه، والألم الذي يخلفه الصراع المحتدم في صدره بين طموحات الروح وواقع سواد الناس، لم يجد أبلغ ما يعبر به عن تلك المشاعر الخاصة بالغة الأغوار من إحدى خماسيات الأميري نفسه! وبعد أن أوردها له بنصّها كتب تحتها: أنا طير طائف من أطيّار روحك!! وأكمل: "أيها الحبيب العظيم! ذلك هو كل ما كنت أريد أن أكتبه إليك، وفيه كل الغناء، وعنده يستطيع القائل أن يقول لك: أنت كما أثبتت على نفسك!.. ولا يلبث الزبيري أن يجد نفسه انطلقت بأبيات سجّلها للأميري في نفس الرسالة يقول له فيها:

أنا طيرٌ محلّقٌ في سمائكُوصدى يستمدُّ من أصدائكُ
بهرتني آفاقك الطهرُ فارتعت وخبّت الضلال في أضوائك
لست أدري، وقد قرأت قوافيك، وأمعت في سماع بُكائك
أشعوبٌ مقتولةٌ فيك تبكي أم نبيّ يئنُّ في أحشائك
ليتني كنت دمعاً ضمن عينيك أرى منهما مدى عليائك
(٩) ليتني زفرة بقلبك أحيا طاهراً وسط شعله من دمايك

ولقد ساهم استمرار العلاقة بين الزبيري والأميري في زيادة اهتمام الأخير بشؤون اليمن والعمل لخدمة قضاياها المستجدة التي كان الزبيري أحد أركانها البارزين، يقول الأميري: "عاد الزبيري إلى مصر بعد ثورتها عام ١٩٥٢ وذهبت إلى مصر أيضاً وقد اختلفت مع نظام الحكم العسكري في سوريا آنذاك، فعدنا إلى التلاقي والتحدّث عن الآمال الآلام، وعن اليمن وأوضاعها والجهاد في سبيل العودة بها إلى مدارجها في الحرية والحضارة، وكان قد استقرّ عزمه على إقامة الاتحاد اليمني ومضى في ذلك فعلاً، فكانت لنا لقاءات خاصة، وكانت لنا لقاءات أخرى مع صفوة من شباب اليمن الذين يضمّمهم الاتحاد أو يتردّدون عليه، وكان حريصاً على أن ألتقي بهم وأسمع منهم وأتحدّث إليهم، وكانت تحفه خلال ذلك ظروف وصروف، وكان يطالب بإيقاف أي نشاط له من قبل الحكومة اليمنية، فكنا نتعاون على تسوية هذه المشاكل وترتيب لقاءات مع الشخصيات المصرية المسؤولة لتدبير استمرار الاتحاد اليمني والأستاذ الزبيري في". (١٠)..المضاء والعطاء

وعندما جرى تعيين الأميري سفيراً لسورية في المملكة العربية السعودية لاحقاً، استأنف جهوده لخدمة قضية اليمن التي آمن بها، وتبنى موقف الزبيري فيها، وفي ذلك يقول: "كانت لنا لقاءات كثيرة شارك في بعضها النعمان الأب، تباحثنا فيها في الميثاق الوطني الذي كان يقترح مطالبة الحكومة اليمنية إعلانة في الوقت المناسب، وفي هذا الصدد كانت لقاءات بينهما في جدة وبين سيف الإسلام البدر وهو ولي للعهد، وكنت أحضر هذه اللقاءات، ورتب مع الأستاذ الزبيري ورفاقه في هامشها ما نقدّر فيه للخير، وندفع به مغبّة ما كان يطالب به سيف الإسلام والبدر من سفر الزبيري إلى". (١١).. اليمن لاستكمال الحديث والاتفاق

ومع تطوّر الأحداث، وتنحية الأميري عن منصبه في السفارة، وقيام الثورة في اليمن، تعثر اللقاء الصديقين الوفيين، لكن العلاقة بينهما ما كانت لتقطع، وإن شابها في بعض المراحل نوع من الكدر! يقول الأميري: "بعد قيام الثورة، وحضور الزبيري (إلى اليمن)، ودخول القوات المصرية، استمرّت الاتصالات بيننا، ولكنها متباعدة في أكثر الأحيان، لأنّ الأستاذ الزبيري كان في حومة من المشاغل والأعباء لا تترك له متسعاً للتنفس، على أنّ الرسائل التي كنا نتبادلها نثراً بشكل عام، وشعراً في بعض الأحيان، كانت تتركز حول اليمن وثورتها والمتعاملين معها، وكان بيني وبين الأستاذ الزبيري في مرحلة من ذلك اختلاف في بعض وجهات النظر، فهو كان حسن الظن، وأنا على". (١٢).. العكس من ذلك

وعلى الرغم من أنّ الأميري لم يفصح عن سبب ذلك الاختلاف، إلا أنه كان واقع الأمر حول الموقف من جمال عبد الناصر الذي خبره الأميري عن تجربة طويلة جعلته - كما قال - "لا يحسن الظنّ فيه"، ولقد أكد الأميري على أنّ "هذا الخلاف في وجهات النظر لم يؤثر على عمق الودّ بيننا واستمرار التحوّل والتعاون، ثم كان تحوّل الزبيري نتيجة". (١٣) للأحداث المتلاحقة

ومن جانبه كتب الزبيري عن ذلك الخلاف بما يؤكد على أنه كان أدنى من أن يمسّ عظيم المودة والمحبة التي قامت بينه وبين الأميري، وقال: "الأستاذ السيد عمر بهاء الدين الأميري معروف عنه أنه من أعلام الأدباء والشعراء والسياسيين في الوطن العربي، ومعروف عنه قدرته على كسب الأصدقاء بأساليب فذة فريدة، لا يكاد يجاريه فيها أحد، ولكن هناك نواحي عظمة خفية في هذا الرجل العجيب لا يُستطاع رؤياها إلا من خلال نكبة يخرج بها المنكوب من دنيا الناس، ويشهدهم من مرّق معزول، ويتحوّل إلى معيار مبصر دقيق، يتحسس جوانب الحياة المضيئة والمظلمة... وكذلك قدّر لي أن أنصهر وأدوب، وأتحوّل إلى جهاز إنساني دقيق حسّاس، وأن أخرج من دنيا الناس وأشهد صورهم وهياكلهم، وأطوالهم وأوزانهم، وحتى تحركاتهم في أعماقهم

الذاتية... وكذلك استطعت أن أرى السيد عمر الأميري، وأعرفه على الحق الأعرق
".الشامل لا على السطح الجانبي كما يراه الراؤون

ويعرض الزبيري ما باعد بينه وبين الأميري من "أعوام طوال، وأحداث جسام،
واختلاف في بعض الاتجاهات والمواقف السياسية، وظنّ أنني بهذا الاختلاف
والانقطاع قد جفوته ونسيته، وكتب قصيدة وعرض فيها بالعتب الأخوي، وأفزعني،
؛ ويورد الزبيري - من ثم - واحدة من روائع قصائده التي " (١٤) ..فكتبت الرد عليه
:جاوزت الثمانين بيتاً يقول في مطلعها

قلبي فداء المخلب الغضبان في حرم العرين
إن شاء أدميت الجفون له ومزقت الوتين
وصهرت روعي في الصلاة له وأحنيت الجبين
أنا إن فقدت رضاهُ تشعُر عزتي أنني مهين
ولئن ذلت له فذلي للوفا شرف ودين
إني بما ملكت يداي من الحياة له مدين
:ويخاطب الأميري مباشرة ويقول له
أنا من عرفت ومن بلوت فلا تظن بي الظنون
أنا شخصك الثاني ولم أمسخ إلى وحلٍ وطين
إن لم أكن أنا أنت يملكني هواك فمن أكون؟
(١٥)...تجري حياتك في دماي فمن أسوء ومن أخون

واستمرّ الأميري على صلته بالزبيري والتعاون معه، وعلى البذل من أجل تحقيق
السلام في اليمن - كما سيأتي -، وعندما بلغه نبأ اغتيال الزبيري المفجع وهو في مكة
صعقت للنبأ، وجلّ في نفسي " (١٦) أيام حجّ عام ١٩٦٥ م. كتب الأميري في يومياته
وقعه وكأنه سهم أصاب قلبي، وسألت الله له منازل الشهداء والرحمة والرضوان"،
وأضاف: "ذهبت إلى الرابطة والتقيت هناك بالحاج أمين الحسيني، واجتمعت بالشيخ
محمد سرور الصبان، وعرضت عليهم فكرة إقامة صلاة الغائب على روح الشهيد
".الزبيري... ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

وظلّ الأميري وفيّاً لذكرى الزبيري، متفانياً في خدمة قضايا التحرر والتطور في
إخاء "اليمن، وظل يحدث نفسه ومن يلتقيه برغبته في أن يُخرج عنه كتاباً بعنوان
، لكنّ ذلك لم (١٨)، وأنه لو طبع لكان من ثلاثمائة صفحة" (١٧) ووفاء للشهيد الزبيري
يحدث للأسف، وكان الأثر المطبوع الوحيد الذي تركه الأميري بهذا الصدد، محاضراته
في رحاب الفكر الإسلامي "التي ألقاها في جامعة صنعاء سنة ١٩٨٤ م. تحت عنوان

العظيم: إقبال والزبيري"، وذلك في إطار الاحتفالات السنوية بذكرى استشهاد الزبيري، والتي تولى إصدارها بعدئذ الملحق الثقافي لباكستان في المملكة العربية السعودية، وأنت في اثنتين وثلاثين صفحة وحسب؛ وكتاب أصدره "اتحاد القوى الشعبية" اليمني مع الشهيد الزبيري.. منه وإليه"، ضمّ بعض القصائد "تحت عنوان عام ١٩٦٥ م ، ولم أوفق - رغم البحث الحثيث - في العثور على نسخة منه، (١٩) المتبادلة بينهما مثلما لم أعثر على شيء من بقية ما كتب الأميري بهذا الصدد، وما لم ينشر من تلك الرسائل والقصائد والذكريات

: هوامش

- [١] - فصل من كتاب قيد الطباعة بعنوان "يوميات وأيام عمر بهاء الدين الأميري [١]".
[٢] - الاثنينية" - المجلد السادس - ص ١٢، بتصرف [٢].
[٣] - ص ١٥ "الأميري: "إقبال والزبيري [٣].
[٤] - صحيفة "الثورة" اليمنية - العدد ٧٠٧٤ - ١٩٨٤/٤/٥ م. - لقاء مع الأميري تحت عنوان: "عمر الأميري يكشف [٤].
"جوانب جديدة في حياة وشعر الزبيري
المرجع السابق)، وديوان "من وحي فلسطين" - ص ٢٤-٢٦ صحيفة "الثورة" اليمنية - [٥].
عبد الرحمن طيب بعكر الحضرمي: "المجاهد الشهيد محمد محمود الزبيري" - ص ١٤٢، بتصرف [٦].
[٧] - ص ١٦ "الأميري: "إقبال والزبيري [٧].
ديوان "مع الله" - ط ٢ - ص ٢٢٢: الأميري [٨].
مع الله" - ص ٢٤٨ "الأميري: ديوان [٩].
[١٠] - (المرجع السابق) [١٠].
[١١] - بتصرف (صحيفة "الثورة" اليمنية - (المرجع السابق) [١١].
[١٢] - (المرجع السابق) صحيفة "الثورة" اليمنية - [١٢].
[١٣] - صحيفة "الثورة" اليمنية - (المرجع السابق) - بتصرف [١٣].
محمد محمود الزبيري: "ثورة الشعر" - ص ٨٩-٩٠ [١٤].
[١٥] - ٩٠٩٢ الزبيري: "ثورة الشعر" - ص [١٥].
م. ٢/٢/١٩٦٥: يوميات الأميري [١٦].
، وقائمة آثاره المخطوطة في نهاية ديوان "إسراق" - (المرجع السابق) صحيفة "الثورة" اليمنية - :انظر [١٧].
ص ٢٧٤
[١٨] - المجلد السادس - ص ١٢ [١٨].
يوميات الأميري: ١ و ١٩٦٥/٧/٢ م [١٩].